# الفصل الثاني

## أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها

alukah.com

obeikandi.com

بعد أن عرضنا لمواضع التقوى ومعانيها، حيث اتضحت بذلك أهميتها، نبدأ الفصل الثانى، وهو في الكلام على أساليب الأمر بالتقوى في القرآن الكريم، حيث تبين هذه الأساليب كيف اتبع القرآن الكريم كافة ما يمكن من أوامر، ليحمل الناس أفراداً وجماعات على تقوى الله تعالى. وقد جعلته في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : النصوص الواردة في الأمر بالتقوى.

المطلب الثانى : أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

أ . المأمور به «المخاطب» مفرداً أو جمعاً، الناس أو المؤمنين، وسر ذلك وتعليله.

ب. المضاف إلى التقوى (معمول التقوى) مع التعليل.

المطلب الثالث : الأوامر المصاحبة للأمر بالتقوى، تفسير النصوص الواردة فيها.

obeikandl.com

# المطلب الأول
# النصوص الواردة في الأمر بالتقوى

هذا المطلب حصر للنصوص الواردة في الأمر بالتقوى، وقد ذيلتها بتفسير إجمالي يبين مقاصدها، ليكون تفصيل هذا التفسير كل في موضعه من بقية المطالب، وها هي ذي تلك النصوص:

١. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].

٢. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤].

٣. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٤. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

٥. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

٦. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

٧. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

٨. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

١٠. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣١].

١١. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

١٢. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤].

١٣. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧].

١٤. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨].

١٥. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٨].

١٦. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾
[المائدة: ١٠٨].

١٧. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧].

١٨. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال: ١].

١٩. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٢٠. ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٩].

٢١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾
[التوبة: ١١٩].

٢٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ
﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١].

٢٣. ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ ﴾ [الزمر: ١٠].

٢٤. ﴿ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾
[المجادلة: ٩].

٢٥. ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧].

٢٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [الحشر: ١٨].

٢٧. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ ﴾ [التغابن: ١٦].

٢٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ ﴾ [الطلاق: ١].

٢٩. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ ﴾ [الطلاق: ١٠].

٣٠. ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ ﴾ [البقرة: ٤١].

٣١. ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

٣٢. ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

٣٣. ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦ ﴾ [الزمر: ١٦].

٣٤. ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢ ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٣٥. ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ ﴾ [الروم: ٣١].

٣٦. ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٥٥ ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

٣٧. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ﴾ [المائدة: ١١].

وبالنظر في هذه الآيات الكريمات نلاحظ:

أولاً: أن الله تعالى أمر الجميع بتقوى الله مؤمنين كانوا، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، أو كفاراً كقوله: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣]، وأفراداً كقوله: ﴿ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أو جماعات كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، أو نساءً كقوله: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، حتى النبي ﷺ أمر بذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١].

ثانياً: تعدد معمولات التقوى في الآيات من لفظ الجلالة: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى وصف الربوبية ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، إلى الجمع بينهما: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ ﴾ [الطلاق: ١].

كذا جاء اليوم الآخر والنار والفتنة والسيئات معمولات للتقوى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ ﴾ [غافر: ٩].

كل ذلك لحمل الناس على تقوى الله تعالى.

ثالثاً: رأينا الأمر بالتقوى معطوفاً على أوامر من أوامر الشرع، والعكس ليكون الأمر بالتقوى حاملاً للمؤمنين على تنفيذ تلك الأوامر والتزامها كقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾ [الأنفال: ١].

رابعاً: وردت أساليب كثيرة متنوعة مع الأمر بالتقوى، كالتذييل لها، حضاً على تقوى الله تعالى، والتزامها وعداً كقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ووعيداً كقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]، وحثاً وإلهاباً لهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧]، إلى غير ذلك مما سنبينه في موضعه – إن شاء الله.

خامساً: بينت الآيات كذلك عواقب الالتزام بأوامر التقوى، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

كل ذلك لحمل الناس كافة على تقوى الله تعالى.

وإلى تفصيل ذلك في بقية المطالب، وثمة تنبيه إلى أنني وضعت بعض تلك النصوص في الموضع اللائق بها في الفصول الأخرى، كعاقبة التقوى وغيره.

obeikandi.com

# المطلب الثانى
# أساليب الأمر بالتقوى

وهذا المطلب خصص لدراسة أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

١. المأمور بها مفرداً أو جمعاً، الناس أو المؤمنون.

٢. المضاف إلى التقوى (معمول التقوى)، مع تعليل كون الأمر بأسلوب الغيبة أو الخطاب.

وها هى ذى بعض الأمثلة لتلك الآيات، نسوقها لننظر فيها، ونربط بين معانيها:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

٣. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

٥. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

٧. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١].

٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق: ١].

**الإضافة إلى النار وعذابها:**

١. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

٣. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

**الإضافة إلى اليوم الآخر:**

١. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٣. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٤. ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

**الإضافة إلى السيئات:**

١. ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر: ٩].

٢. ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٥].

**الفتنة:**

١. ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وبالنظر في هذه الآيات الكريمات يتبين:

أولاً: أن إضافة التقوى إلى الله - سبحانه - معناه أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضب وسخط وعقاب وقاية تقيه من ذلك، وهو أصل التقوى كما ذكرنا في تعريفها[1]، وكذلك الأمر في اتقاء اليوم، إنما يتقى ما يحدث فيه من أهوال وكرب، حيث يأمر الله المؤمنين بأن يجعلوا بينهم وبين تلك الأهوال والكرب وقاية تقيهم من ذلك، من فعل الطاعات واجتناب المعاصى، وهو نفس المعنى في طلب التقوى من النار كما في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، أى يجعل بينه وبين النار وعذابها وقاية، كما في حديث النبى ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[2]، وذلك كما ذكرنا.

ثانياً: عبر القرآن الكريم في بعض المواضع بلفظ الجلالة (الله)، وفى بعضها بلفظ الربوبية، ولكن الملاحظ أنه جاء بلفظ الجلالة عند نداء المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، ولم يشذ عن ذلك شيء إلا ما كان من قوله في سورة الزمر: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ﴾، وليس بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ... ﴾، سنشرح مناسبتها بعد - إن شاء الله تعالى.

وأما لفظ الربوبية، فقد ذكر مع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وهى نداء لأمة الدعوة جميعاً، لذا وجدنا السياق متناسباً مع دعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وهو ما أشرنا إليه في «التقوى دعوة الرسل»، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

---

(١) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٨).

(٢) الحديث رواه البخارى (١٤١٧). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٣/ ٢٨٣). ورواه مسلم (١٠١٦). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم، (٤/ ١٠٩).

رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾. ولنضرب أمثلة على ذلك من الآيات السابقة، توضح المقصود وتزيد في فهم الآيات، بمقارنتها بعضها ببعض.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء: ١]: جاء الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ليشمل جميع المدعوين الذين يسمعون القرآن، لئلا يختص بالمؤمنين، إذ غير المؤمنين حينئذ هم كفار العرب، وهم الذين تلقوا دعوة الإسلام قبل غيرهم.

فلما كان ما بعد هذا النداء جامعاً لما يأمر به الناس نودي جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد، إذ قال: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد، فالمقصود من التقوى في قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه، وذلك حق توحيده والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه عن الشركاء في الوجود والأفعال والصفات.

ومن ثم عبر بـ ﴿ رَبَّكُمُ ﴾ دون لفظ الجلالة (الله)، لأن في معنى الرب ما يبعث العباد على الحرص على الإيمان بوحدانيته، إذ الرب هو المالك الذي يدير شؤون مملوكه. ودلت الإضافة في ﴿ رَبَّكُمُ ﴾ على الصلة التي بين الرب وبين المخاطبين، وهي صلة تعد إضاعتها حماقة وضلالاً، لأنهم بهذه الإضافة إليه محققون له بتقواه حق التقوى.

ثم جاء التعبير ذلك في نفس الآية بقوله - جل وعلا: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ ﴾، فجاء بلفظ الجلالة، ولم يعد بضمير على ﴿ رَبَّكُمُ ﴾، لأن الآية شرعت في الكلام على التشريعات التي حوتها السورة، فأعيد لفظ

التقوى ليختص بالمؤمنين، والحكمة من مخاطبة المؤمنين بالتقوى في مواضعها، حيث جاءت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، إنما المطلوب ثباتهم عليها وازديادهم منها. وجاء حينئذ لفظ الجلالة (الله) في هذه الأوامر، لأن التقوى هنا مأمور بها المؤمنون خاصة، لأنه مقام تشريع ناسبه إيثار المهابة وإدخال الروع في ضمائر السامعين، ليمتثلوا تلك الأوامر، على خلاف لفظ ﴿ رَبَّكُمُ ﴾، الذي ناسب الترغيب لما يظهر من صلة بين عموم الناس وبين ربهم.(١)

وفى التعبير بالناس والمؤمنين في هذه النداءات تنبيه آخر، وهو التفريق بين القرآن المدنى والقرآن المكى، فإن غالب القرآن المكى كان النداء فيه للناس، بعكس الخطاب المدنى فقد كان غالبه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. وقد تميز القرآن المكى المتعلق بالتقوى فيما رأينا من النصوص بذكر عاقبة التقوى مجملة، كقوله: ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، وذلك في قصه قصص الأمم المكذبة، تثبيتاً للمؤمنين وتسلية للنبى ﷺ مع ذكر عاقبة التقوى في الآخرة.

أما القرآن المدنى فقد زاد في الأمر بالتقوى للعبادات والسلوك والمعاملات، ثم زاد على ذكر عاقبة التقوى في الآخرة ذكر عاقبة التقوى في الدنيا. يذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ من سورة الحج، مضيفاً على ما سبق من المعانى: «وفى التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافاً إلى ضمير المخاطبين، إيماءً إلى استحقاقه أن يتق لعظمته بالخالقية وإلى جدارة الناس بأن يتقوه، لأنه بصفة تدبير الربوبية، لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعى مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم، وكلا

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢١٦-٢١٧)، وانظر الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى «الإتقان في علوم القرآن»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م، مجلد١، (١/ ٣٧).

الأمرين لا يفيد غير وصف الرب دون وصف الخالق والسيد».(١)

وبذا يتضح دقة التعبير بلفظ الجلالة أو الربوبية ومناسبة ذلك للخطاب.

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠]، فقد خرجت الآية الكريمة عن مثل ما سبقها من كون الأمر بالتقوى للمؤمنين يضاف إلى الله، ليس إلى لفظ الربوبية، وهى الوحيدة كما أشرنا. وأما معناها فهو أن الله - جل وعلا - أمر المؤمنين بأن يتقوا ربهم، وذلك بالنداء في قوله: ﴿ قُلْ ﴾، ولكن لما أضاف المؤمنين إلى ضمير الله تعالى بوصف العبودية دل ذلك على تشريفهم، وليدل - كذلك من باب الأولى - على كونهم متقين لله - سبحانه - من قبل ندائهم للتقوى وأمرهم بها، ويؤذن كذلك بالاهتمام بما سيقال لهم عن ربهم، لأن الله تعالى أمره أن يبلغهم عين ما أمر الله - جل وعلا، ويبين درجتهم العظيمة عند الله تعالى، إذ وضعهم في مقام المخاطبة منه سبحانه وتعالى.(٢)

ويكون المراد من الأمر بالتقوى لهؤلاء المتقين من قبل، الدوام على تقوى الله والثبات عليها، لأن السياق يشعر بأنهم قد نزل بهم من الأذى والتعذيب في الدين ما يخشى عليهم معه أن يقصروا في تقواهم، حيث جاءت جملة: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ ﴾ معترضة، لتزيح ما عسى أن يتوهم من التعلل في التفريط بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي.

ومن ثم كان الأمر ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ ﴾ تمهيداً لما سيوجه إليهم من أمرهم

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ١٨٦).

(٢) وانظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ٤٦٠). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٣، (٢٣/ ٣٦٥). والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٣٥٢).

بالهجرة للسلامة من الأذى في دينهم، فجاء التعبير الربوبية ليمس هذه العلاقة والصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم، التي تثير فيهم الامتثال لترك الوطن والأهل في سبيل الله تعالى، حماية لدينهم وبعداً عن الفتنة فيه.

وجاء كذلك الجمع بين اسم الجلالة واسم الربوبية في معمولات الأمر بالتقوى في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾، وهو في قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾.

فرأينا أولاً: حذف متعلق ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ليعم جميع ما يتقى الله فيه، وأول ما يقصد بأن يتقى الله فيه ما سيق الكلام لأجله من مواضيع الطلاق والعدة وغيرها مما كان شائعاً فيه الظلم في الجاهلية.

ثانياً: قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ تحذير من التساهل في تلك الأحكام، وذلك أنهم كانوا لا يقيمون في الجاهلية للنساء وزناً، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن، فنسى الناس تلك الحقوق وغمصوها، فكانت هذه الآيات بتلك اللهجة الشديدة لتكفهم عن ذلك، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله، ولمزيد الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ربكم للتذكير بأنه حقيق أن يتقى غضبه.(١)

وإذ قد ورد النداء للجمع - الناس والمؤمنين - بتقوى الله تعالى، فقد جاء كذلك للمفرد ولم يأت إلا في آية واحدة بصيغة الخطاب، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].

والظاهر أن صيغة الخطاب هذه لا تكون إلا للنبي ﷺ، لأنه الموحى إليه من

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٢٩٨-٢٩٩).

الله تعالى، ومن ثم يتوجه الخطاب المباشر من الله تعالى إليه، فكانت الوحيدة في القرآن الكريم لهذا المعنى، حتى ولو فرض أن تكررت فلا يمكن إلا لمخاطبة النبي ﷺ. أما بصيغة الغيبة فقد وردت كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وبالنظر في الآية نرى أنه قد ذهب بعض العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ تنبيه بالأعلى على الأدنى بالأمر بتقوى الله تعالى، ويكون ذلك خطاباً للأمة في شخص النبي الكريم ﷺ ، ويكون الأمر للنبي ﷺ بالتقوى أمر بالثبات عليها والازدياد منها أتقى الناس لله - جل وعلا.(١)

وللعلامة ابن عاشور تفصيل آخر، حيث يقول في تفسيره للآية الكريمة: «والأمر للنبي ﷺ بتقوى الله توطئة للنهي عن إتباع الكافرين والمنافقين، ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره، فإن معنى ﴿ وَلَا تُطِعِ ﴾ مرادف معنى: لا تتق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى، فصار مجموع الجملتين مفيداً معنى: يا أيها النبي لا تتق إلا الله، فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز، إلى ذكر جملتي أمر ونهي، لقصد النص على أنه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، لأنه لو اقتصر على أن يقال: لا تتق إلا الله، لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة، لأن تقوى النبي ﷺ ربه أمر معلوم».(٢)

تعين بما سبق في قوله: ﴿ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ والنهي في قوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/ ٤٥٦). وصديق خان «فتح البيان»، (٧/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ٢٥٠).

الله، فأشعر ذلك أن تشريعاً عظيماً سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه، وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين، فأعلمهم من قبل أن الرسول ﷺ لن يطيعهم لييأسوا من ذلك، وهو دليل على أن طلباتهم من النبى ﷺ يمكن أن تكون نصحاً له، خاصة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام فمن تقوى الله ألا يطاعوا فيها كذلك.

وقد ختمت الآية بما يدل على لزوم تقواه وحده بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾، أى هو العليم بما فيه الصلاح، الحكيم بما يشرع، فوجبت طاعته لا طاعة غيره - جل وعلا.

وتبين هذه الآية الكريمة تشريعاً عاماً للمؤمنين في كل زمان أن طاعة المنافقين والكافرين مخالف لتقوى الله ومضاد لها. وكم كان ذلك وما زال مخالفاً لصلاح الأفراد والأمة، بل وموقع لهم في البلاء والمحن.

لم يغفل القرآن الكريم إفراد النساء بالأمر بتقوى الله تعالى، وإن كن يدخلن في الأمر العام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وذلك للتنبيه على أن النساء مأمورات بتقوى الله تعالى لا ينقصن عن الرجال في ذلك، وأن عاقبة التقوى تشملهن في الدنيا والآخرة، وأن صلاح النساء عليه المعول الكبير في إصلاح شؤون البيت، وبالتالى صلاح الأمة.

جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٥٥] لتدل على ما سبق. وبالنظر فيها نجد أسلوب الالتفات من الغيبة في قوله ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ ﴾ لتشريفهن بذلك، وحملهن على تقوى الله تعالى.

والآية نزلت في نساء النبى ﷺ تنبيهاً بالأعلى على الأدنى بتقوى الله تعالى، فإذا كان صواحب الرسول ﷺ مأمورات بذلك، فمن باب الأولى أن يأمر غيرهن.

وختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾، أي لا تخفى عليه خافية، لحضهن على تمام التقوى، فإن اطلاع الرب سبحانه على المرأة حامل لها على الحياء، والبعد عما يغضب الله تعالى، وكان يمكن كذلك أن يقال: إنه كان على كل شيء شهيداً، فأظهر لفظ الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة في نفوسهن من الله تعالى، وتأكيداً على استقلال الجملة.[1]

وهكذا ما تركت آيات التقوى في القرآن الكريم من أحدٍ إلا خاطبته بتقوى الله – جل وعلا.

كان معمول التقوى فيما سبق في الآيات السابقة عند مخاطبة الجمع والمفرد هو الاسم الظاهر لفظ الجلالة «الله» أو الربوبية «ربكم» كقوله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ و﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾. وهنا رأينا أسلوبين جديدين لمعمول التقوى ساقهما القرآن الكريم، ينبغي كذلك النظر فيهما إتماماً لما سبق، وهو قوله: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ بصيغة الخطاب، و﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ بصيغة الغيبة، وقد ورد الأول في قوله تعالى:﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى:﴿ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]، وقوله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقد ورد الثاني في قوله: ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٣]. وبالنظر في الأسلوب الأول، وهو ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾، نلاحظ على هذه

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٩٦).

الآيات أن الأمر بالتقوى جاء بعد مناداة المولى سبحانه لعباده بأنه إلاههم وربهم، وكذلك خاطب سبحانه العباد كافة بالتقوى في قوله: ﴿ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾، مؤمنهم وكافرهم. وهذه الآيات قد جمعت الأوامر السابقة، التي معمولها لفظ الجلالة الظاهر والربوبية ولكن مع استخدام تعبيرات جديدة لتؤكد لزوم التقوى والحث عليها، مع زيادة أسلوب من أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها، وهو: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، ونلاحظ أن كل ذلك بالخطاب المباشر، لا باستخدام أسلوب الغيبة، تشريفاً للمخاطبين لحملهم على تقوى الله تعالى.

وبالنظر في هذه الآيات نرى أن سياق الأولى في سورة البقرة هو قوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾، وقد جاء في شأن اليهود لقيامهم بهذه الجريمة، وهي تحريف آيات الله بثمن قليل، ولا يقصد القرآن الكريم أن يحرفوها بثمن كثير، بل هو تبشيع للفعل وأنه مهما أوتوا في مقابله فهو قليل حقير، لأنه فعل منافٍ لتقوى الله والخوف منه.

ثم جاء بهذا التذييل ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾، ليحضهم على تقواه هو وحده، فهو من أساليب القصر، بل كما ذكر بعض المفسرين هو أبلغ في إفادة القصر من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مثلاً، لينبههم على تخصيصه وحده دون غيره بالتقوى، أي بالخوف منه، لا من رهبانهم وأحبارهم ممن يحرفون كلام الله لهم أو يأمرونهم بهذا التحريف، فأمرهم سبحانه بعصيان كل أولئك، وعدم الخوف إلا منه هو وحده، مهما كان الترغيب والترهيب.[١]

وهو لاشك تنبيه على المؤمنين من باب الأولى بتقوى الله تعالى والخوف منه

---

(١) انظر «التفسير الوسيط»، مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٣م، (١/ ٨٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٤٥٧). وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٦٥).

وحده، والحفظ على دينه وكلامه، لئلا يحرف مهما كان الثمن مادياً أو معنوياً.

أما الموضع التالي وهو قوله تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ فقد جاء في سياق قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾، وهو تفريع لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ ﴾، لأن التخويف مؤذن بأن العذاب أعد لأهل العصيان، فناسب أن يعقب بأمر الناس بالتقوى لتفادى هذا العذاب.

وقدم النداء على التفريع من أن مقتضى الظاهر تأخيره عنه، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾، لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب، فهو جدير باسترعاء أذهان المخاطبين إلى ما سيرد بعد التفريع، خاصة وهو يخاطب عموم الناس، كافرهم ومؤمنهم.

أما قوله: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾، فهو في سياق ترغيب المؤمنين في إكمال أعمال الحج والتزود بزاد التقوى في قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾، فلذا جاء الأمر بالتقوى معطوفاً بالواو، وخاطب به أولى الألباب، لأن التقوى مما يرغب فيه أهل العقول.

ونختم بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾، وهى بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وهذه الآية معطوفة على قصص إرسال الرسل السابقة عليها من أول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، لأن تلك القصص إنما قصت عليهم لأن شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالألوهية، ويكون المعنى: ولكون دينكم ديناً واحداً لا يتعدد فيه المعبود، وكونى ربكم، فاتقون ولا تشركوا بى غيرى، خطاباً للرسل، والمراد أممهم أو خطاباً لمن خاطبهم القرآن

الكريم.[1]

وهكذا رأينا أنواع الخطاب المختلفة الذي جاءت في القرآن لأمر الناس والمؤمنين، أفراداً وجماعات بالتقوى، وبكل أسلوب يحملهم على ذلك.

ويتبقى النظر في الأسلوب الأخير في الأمر بالتقوى، وهو ما جاء بصيغة الغيبة ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾، لنستكمل كل معمولات التقوى المتعلقة بالله تعالى.

وأول هذه الآيات التي جاء فيها هذا الأمر قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٢] في سورة الأنعام. وفى هذه الآية الكريمة عطف ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ على ﴿ أَقِيمُواْ ﴾، والضمير المنصوب عائد إلى ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ في قوله: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ...﴾ ، أى اتقوا رب العالمين. وفى ذكر اسم الله تعالى بوصف الربوبية لجميع الخلق إشارة إلى تعليل الأمر بالتقوى، إذ هو جدير بذلك سبحانه، لأنه ربهم – جل وعلا.

وَجَمع قوله «واتقوه» جميع أمور الدين، وقدمت الصلاة، وهى من التقوى للاهتمام بها بعد الإسلام لله تعالى، إذ هى أهم أمور التقوى، فكان ذلك من عطف العام على الخاص لأهمية الخاص بالإفراد والذكر.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ تعليلاً للأمر بتقواه – سبحانه، ولوجوب الامتثال، وهى معطوفة على «واتقوه» عطف الخبر على الإنشاء، أى: وقل لهم وهو الذي إليه تحشرون، حضاً لهم على تقوى الله وعلى عدم التفريط فيها، لأنهم سيحشرون إلى الله تعالى فيسألهم عن ذلك، ويجازيهم به، وقدم معمول «تحشرون» ليفيد حصر الحشر إليه لا إلى غيره، تأكيداً

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/ ٦٩-٧٠).

لرجوعهم إليه، وحسابهم عنده لا محالة.[١]

والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الروم: ٣١] في سورة الروم، حيث جاءت الآيتان الباقيتان في فصل «التقوى ودعوة الرسل»، والآية السابقة عليها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد ورد فيها الأمر بتقواه - سبحانه - بعد أمرهم بإقامة وجوههم إلى الله منيبين، أي: راجعين إليه النوبة بعد الأخرى، حيث أعربت «منيبين» حال من الضمير في «أقم»، والخطاب للنبي ﷺ وأمته، فلذا جمع «منيبين»، لتحملهم تلك التقوى على رجوعهم الله والإقامة على طاعته، وأهم ما يقيمون من أمور الدين فذكرها ونبه على إقامتها هو الصلاة، وهى في نفس الوقت التي تبين إنابتهم وحسن تقواهم لله تعالى. وقد فسرت الإنابة أيضاً بالتوبة، فيكون المعنى: أقيموا وجوهكم للدين تائبين لله تعالى، ويكون الأمر بالتقوى وإقامة الصلاة مستعملاً في طلب دوام ذلك.[٢]

وبعد أن انتهينا من ذكر معمولات التقوى المتعلقة بالرب سبحانه وتعالى، نستكمل بقية المعمولات:

## أولها: النار وعذابها:

إن تحقيق أسباب الوقاية من النار وعذابها مما يسعى إليه المتقون، ومن ثم كان من صفاتهم التي مدحهم الله - جل وعلا - عليها أنهم يدعون ربهم أن

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ٣٠٥-٣٠٦).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ٩٥). وأبى السعود «إرشاد العقل السليم».

يقيهم عذاب النار. ولما كانت الوقاية من النار وعذابها من مطلوبات الشرع، ودليل تقوى الله، حيث ينجى الذين اتقوا من عذاب جهنم: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]، أمر الله تعالى الناس جميعاً بأن يتقوا النار، بقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، بل وزاد أمر المؤمنين خاصة بأن يقوا أهلهم كذلك، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾. وقد أمر الرسول ﷺ أيضاً المؤمنين أن يقوا أنفسهم النار، وألا يستصغروا شيئاً من المعروف والعمل الصالح يكون وقاية لهم من النار، فقال - عليه الصلاة والسلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» الحديث.[1] دل ذلك على أن امتثال الأوامر واجتناب النواهى والمسارعة إلى الخير هى ما يقى به المرء نفسه من النار وعذابها.

ونبدأ في تحليل تلك الآيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾.

الآية الكريمة جاءت في سياق ما ذكره القرآن الكريم من تحدى الكفار أن يأتوا بسورة من مثله، مع الاستعانة بشهدائهم. ثم أخبرهم أنهم لم ولن يفعلوا، وهم فرسان الكلام وأساطين البلاغة، ويهمهم ويشغلهم أن يأتوا بمثله، أو يعارضوه ليبطلوا تلك الدعوة، بدلاً من الحرب والقتال، فظهر بذلك عجزهم، وظهر بذلك إعجاز القرآن الكريم الخالد، وجاء الوعيد الشديد في جواب الشرط - على رأى جمهور المفسرين - وهو ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾، أى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ بمعنى أنكم إذا لم تأتوا بمثله - ولن تأتوا - فاتركوا عنادكم وآمنوا، لأن ذلك وقايتكم من النار. ولذلك ذهب - أى لأن الإيمان هو الوقاية من النار- بعض المفسرين

(١) سبق تخريجه.

إلى أن ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ أثر لجواب الشرط، دل على جملة محذوفة، ويكون تقدير الكلام: فإن لم تفعلوا فأيقنوا أن ما جاء به محمد حق منـزل من عند الله، وأنه صادق فيما أمركم به من عبادة الله وحده، فاحذروا النار إن لم تمتثلوا أمره.(١)

وعلى ما قلنا من ذهاب جمهور المفسرين إلى أن (فاتقوا) جواب الشرط، يقول العلامة أبو السعود في تفسير الآية من «إرشاد العقل السليم»:

«﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتيبه عليه،كأنه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله – كما هو المقرر – فاحترزوا من إنكار كونه منـزلاً من عند الله – سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار، ولكنه أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير النار، وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها، للمبالغة في تهويل شأنه، وتفظيع أمره، وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه، وتنفيرهم عنه، وحثهم على الجد في تحقيق المكنى عنه».

ويستطرد قائلاً إن هذا التعبير ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ من بديع الإيجاز. يقول – رحمه الله: «حيث كان الأصل: فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد، وترككم الإيمان به سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار، فاحترزوا منه، واتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ».(٢)

فكان هذا اللفظ المبدع في إيجازه يحمل في طياته الأمر بالتقوى، وتبيين سبيل التقوى، وعاقبة النكول عن التقوى.

وهنا سؤال: إنهم لا يؤمنون بالبعث، فكيف حذرهم القرآن النار ولم يحيطوا بها علماً؟ لعله قد سبق علمهم بما حذرهم به النبى ﷺ قبل ذلك وهددهم به إذا لم

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٨٢).

يؤمنوا، ولاشك أن معظم القرآن المكى كذلك، وقد سبق لهم قوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾، ولذا ذكر هنا أنهم وتلك الحجارة وقود النار، ولعل ذلك إشارة إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون، ليروا أنها لم تنفعهم، حيث كانوا يظنون فيها النفع والضر والتقريب إلى الله، فيزداد بذلك سوءهم وعذابهم، ولتطول برؤيتهم حسرتهم وندامتهم.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

وهى من هذا القبيل، أى من إضافة التقوى إلى النار. وإذا كانت الآية السابقة خطاباً للكفار، فهذه الآية خطاب للمؤمنين بأن يقوا أنفسهم، وليس ذلك فحسب - فإن المؤمن راع ومسئول عن أهل بيته - وعليه أن يقى أهله كذلك النار، وذلك بأن يحقق في نفسه تقوى الله تعالى، وأن يحمل أهله عليها بكل سبيل، فإن ذلك من مسئوليته التي سيحاسب عليها، فضلاً عن إساءته بأن يرى أهله يعذبون، وكان يمكن أن يكون السبب في نجاتهم.

يقول الإمام ابن كثير في معرض تفسير الآية: «وقال مجاهد: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ، قال: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله».[(١)]

ونلاحظ أن الآيات الكريمات السابقة على هذه الآية الكريمة كانت في موعظة نساء النبى ﷺ فكانت تلك مناسبة لتحذير المؤمنين من الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم، وأن لا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم، وإن كان في ذلك بعض الأذى.[(٢)]

---

(١) الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٩١). وابن جرير الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد١٢)، (٢٨/ ١٠٧).

(٢) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٣٦٥).

وقد عبرت الآية السابقة عن العناد وترك الإيمان بالنار، وفى هذه الآية الكريمة عبر القرآن الكريم عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار، فكان مناسباً أن يعبر عن العناد وترك الإيمان بالنار مع الكافرين، ليفروا من هول ما هم فيه إلى الله تعالى مؤمنين مسلمين، وأما المؤمنون فالموعظة والتحذير هى وقايتهم من النار، ليتمسكوا بها وألا يفرطوا فيها فيقحموا بذلك في النار، على عكس الأولين حيث هم في النار أصلاً.

وزيد في الآية الثانية تهويل شأن النار وتفظيعها، ليحذر المؤمنون ذلك، في قوله: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ...﴾، على عكس الأولى، لأنهم في النار ولا يحتاجون إلى تخويف.

وهذا كله هو التقوى التي سبق كل ذلك لأجلها.

## الثانى: اليوم الآخر:

جاء الأمر بالتقوى مضافاً كذلك إلى اليوم الآخر أى معمولاً له، لأن اليوم الآخر وما ذكر الله من أهواله التي يشيب له الولدان، كفيل لمن تدبر فيه بحضور قلب، أو مراعاة سمع، أو صفاء ذهن، أن يحمل المرء على تقوى الله تعالى، بل وعلى استدامة تلك التقوى سالكاً سبيل الاستقامة. كلما راغ عنه أو أخذته الدنيا أو الشهوات شيئاً عن هذا السبيل، رده ذلك التذكر مرة أخرى إلى الجادة، والاستعداد ليوم المعاد، خاصةً وأن رحيل الإنسان من الدنيا بغته، مما يوجب دوام الحذر ولزوم التقوى.

وهاك ما ورد في ذلك:

١. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٣. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٣].

٤. ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل: ١٧].

والتقوى لا تكون مما سيحدث في هذا اليوم، خاصة إذا كان ما سيحدث فيه شديداً لا دفع له،وأكيداً لا تخمين فيه. يقول العلامة الألوسى، في «روح المعانى»: «واتقاؤه بمعنى اتقاء ما فيه، إما مجازاً بجعل الظرف عبارة عن المظروف، أو كناية عنه للزومه له وإلا فالاتقاء من نفس اليوم مما لا يمكن، لأنه آتٍ لا محالة، ولابد أن يراه أهل الجنة والنار جميعا، والممكن المقدور اتقاء ما فيه بالعمل الصالح ».[1]

فمعنى التقوى اللغوي[2] أن يجعل المرء بينه وبين عذاب الله تعالى أو حسابه الواقع في هذا اليوم وقاية تقيه منه، وهذه الوقاية هى تقوى الله تعالى، ولكنها بالمعنى الشرعى المعلوم. ونلاحظ أن (يوماً) منكرة ومنونة في كل المواضع، حيث أعربت مفعولاً به، لا ظرفاً، وذلك لتهويل شأن هذا اليوم وشدته، وطوله وكربه، مما وصفه الله تعالى به في آيات أخر، كما أشرنا إلى شئ منها. ولعل في تنكيره إبهام مجيئه كذلك، ليكون الناس على حذر من مباغتته إياهم، فيستعدوا بتمام التقوى للقائه.

وسياق الآيات الكريمات يبين لنا أن القرآن الكريم خاطب كافة البشر باتقاء اليوم الآخر، كلاً بما يليق به من أسلوب ينبئ عن فكره واعتقاده، وبما يكون مؤثراً فيه، بالغاً به الدرجة القصوى من الموعظة، عذراً لهم جميعاً، وتهديداً

---

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٣٩٨).

(٢) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٤٨٤).

لهم جميعاً. فآية المزمل – وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ – جاءت خطاباً للمشركين المكذبين، حيث سبق قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ...﴾، فهددهم بما حدث لفرعون في الدنيا بتكذيبه الرسل، أن يحدث لهم مثله، وتوعدهم بما هو أشد، وهو اليوم الذي تشيب فيه الولدان، ليكون باعثاً لهم على تقوى الله تعالى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، والآية الأخرى الشبيهة بها فسياقها في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى ...﴾. ومناسبة سياقها على هذا النحو أن اليهود والنصارى معتقدون أن أنبياءهم وصالحيهم سيشفعون لهم عند الله، فأيأسهم الله تعالى وقنطهم من كل شيء يظنون نجاتهم به في هذا اليوم، إلا من تقوى الله تعالى، كما سنشير إلى كلام المفسرين.

والآية الثالثة – وهي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ – قد جاءت في سياق نهى الله تعالى المؤمنين عن التعامل بالربا، وأمرهم بحسن المعاملة من إنظار المعسر والتخفيف على المدين، ثم حذرهم اليوم الذي سيرجعون حتماً فيه إلى الله – جل وعلا – فيعطي ويجازى كل أحد على قدر طاعته وإحسانه، وأنه لا يضيع عنده مثقال الذرة من العمل الصالح، كما أنه سيجازى العاصين المتعدين لحدوده، المخالفين لأمره، جزاءهم الوفاق: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧–٨]، وكأن اليوم من الهول

بحيث يجب أن يتقيه كل أحد من مسلم أو كافر.

وقد وصف يوم القيامة بأنه تشيب له الولدان، وأنه لا يرد فيه ولا يدفع ولا ينفع ولا يشفع أحد عن أحد. فالوصف الأول يدل على مدى هوله وشدته وعظم كربه، وما يغشى الناس فيه من المحن والعذاب، وما يقاسونه من طول الانتظار، والثاني أنه لا مرد له من الله ولا وقاية له بغير التقوى، والثالث أنه توفى كل نفس ما كسبت، فجمعت الآيات بذلك ما يمكن أن يكون سبباً لتقوى الله تعالى. يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ولذلك قال الشيخ ابن عطية: حصرت هذه الآية المعانى التي اعتاد بها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو يفتدى أو ينصر».[1]

وذلك في الوصف الأول في الآيات ليوم القيامة.

وقد جاء تنكير «نفس» و«شيء» في الآية في سياق النفى، فتعم كل نفس وكل شيء، ويكون المعنى أنه لا تجزى أى نفس أى شيء عن أى نفس، وهذا يفيد التيئيس الكلى والإقناط التام من نجاة أى نفس، إلا بتقوى الله تعالى.

يقول العلامة أبو السعود: «﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ أى: لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق...، وإيراده منكراً مع تنكير النفس للتعميم

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٤٨٦)، وذكر أن تفسيره للآية أرشق من تفسير ابن عطية.

والعدل هو الفدية في الآية، وقد احتجت المعتزلة على اعتقادهم الفاسد بنفى الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ على خلاف معتقد أهل السنة جميعاً. وما من مفسر قرأت له إلا وذكر موضوع الشفاعة لأهل الإيمان ممن ارتكب الكبائر في هذه الآية، رادا على المعتزلة. راجع كلام العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، حيث أحاط بالمسألة، (١/ ٤٨٧-٤٨٨).

والإقناط الكلى».[(١)]

وآخر هذه المعمولات هو «السيئات»، وقد جاء ذلك في قوله تعالى:﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ [غافر: ٩].

جاءت السيئات هنا في هذا الموضع معمولاً للتقوى في قوله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن (قهم السيئات) معناها ألا يفعلوها في الدنيا وأن يحفظها منها، ومن ثم كان من وقاه الله تعالى السيئات فقد رحمه من آثارها الوخيمة في الآخرة. ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة، بمعنى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أى جزاء السيئات، أو على ظاهرها على أن جزاء السيئة سيئة مثلها، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على معنى ما سبق يومئذ أى يوم القيامة، ﴿ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ من وبيل عقابها، على حذف المضاف، أو منها نفسها، على كونها هى الجزاء. ويكون معنى الوقاية من السيئات في الدنيا والآخرة أن وفقهم الله تعالى لتقواه بالمعنى الشرعى، ليحول بذلك بينهم وبين هلكتهم. والسياق يدل على كون ذلك في الآخرة، إذ تقوى السيئات هى الرحمة التي لا رحمة بعدها، وذلك هو الفوز العظيم، خاصةً وأن ذلك دعاء الملائكة للمؤمنين، إذ من فضل الله تعالى السابغ على أهل الإيمان، التائبين منهم بالذات، المستقيمين على أمر الله تعالى، المتمسكين بطريقه، أن ملائكة الله - جل وعلا - الذين يحملون العرش من حوله، من وظائفهم التي يقومون بها ويداومون عليها، دعاءهم للمؤمنين بهذه الأدعية التي ذكرتها الآيات السابقة على الآية الكريمة التي معنا.

وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ١٢١).

وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ
وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧-٩].

وقد لخص ذلك كله العلامة الألوسى في «روح المعانى».[١]

وبذلك نختم ما أحصينا من آيات «مضافات التقوى» ومعمولاتها.

(١) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٣، (٢٤/ ٧٣).

obeikandl.com

## المطلب الثالث
## الأوامر المصاحبة للتقوى

جاء الأمر بالتقوى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، إما معطوفاً على أحد الأوامر أو النواهي، كقوله – سبحانه – في الأوامر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ومن الثاني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وقد يأتي العكس، أى الأمر بالتقوى، ثم يعطف عليه الأمر أو النهى، فالأول مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة: ٣٥]، ومن الثانى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقد يكرر الأمر بالتقوى، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

وقد يأتى أمر ونهى معطوفين على الأمر بالتقوى، كقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. فهذه الآية فيها نهى عن اتخاذ آيات الله هزواً، وأمر بذكر نعمة الله عليهم وما أنزل من الكتاب والحكمة لهدايتهم، ثم عطف على هذا الأمر والنهى الأمر بالتقوى، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. ، ثم ذيلت الآية بقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

علاوةً على ما أسميته أساليب الحض على التقوى، وهى التذييلات التي

جاءت في نهاية هذه الأوامر لتكون حضاً وحثاً على تنفيذ تلك الأوامر السابقة، ولها أمثلة مما حصرناه في أول الفصل، منها قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَقَدِّمُواْ لأنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ولم أجد من المفسرين الذين قرأت لهم تفسير هذه الآيات ما يشفى الغلة في توضيح معنى الأمر بالتقوى في هذه الآيات الكريمات، سواء كان مقدماً أو مؤخراً، فإما أنهم لم يذكروها من أصلها كابن عطية والزمخشري، أو أشار إلى معنى التقوى المعلوم - وهو إتيان الأوامر واجتناب النواهي - كالحافظ بن كثير.

وبالنظر في هذه الآيات نجد فرقاً في الأسلوب والمعنى، لو أخرنا ما قدم أو قدمنا ما أخر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة: ٤]، فلو قلنا: اتقوا الله وكلوا مما أمسكن عليكم، لتغير المعنى، والدليل على ذلك أننا لو قلنا: اتقوا الله وكلوا، لكان مقصود الشرع هو الأكل، لذلك خوفهم بالله وأمره بالأكل وحملهم عليه، وأن يأكلوا أو لا ليس مقصوداً للشرع، لأنه مباح، أما أن يقول: (فكلوا.. واتقوا..) يكون بذلك أباح لهم الأكل، ثم أمرهم بتقواه ألا يكون في هذا المباح ما يخالف ربهم، أو أن يقعوا بسببه فيما كره لهم أو حرمه عليهم، ويقاس على ذلك الباقي، مع ملاحظة السياق في ذلك كله.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١] تختلف عما لو قلنا: أصلحوا ذات بينكم واتقوا الله. وهكذا في معظم الآيات، خاصةً تلك التي عطفت فيها الأوامر على الأمر بالتقوى أو بالعكس، مما يبين دقة القرآن الكريم المعهودة في اختيار الألفاظ للمعاني المقصودة.

ولابد من النظر في بعض معانى التقوى - التي أشرنا إليها - لنقيم الدليل والبرهان على صحة ذلك، ونؤيده بهذه الآيات شواهد عليه. فنبدأ بالقول إن من معانى التقوى الخوف، وهو أقرب ما وجدنا من المعانى يناسب الأوامر أو النواهى بعد الأمر بالتقوى. ويكون المعنى: خافوا الله وافعلوا، أو: خافوا الله ولا تفعلوا، فيكون الخوف هو الباعث على القيام بأوامر الشرع، وانتهاء عن نواهيه، ويكون المعنى: اجعلوا بينكم وبين ما تحذرون من عذاب الله تعالى وسخطه وقاية، من التزام ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه. ويكون الأمر بالتقوى - أولاً - ليسرع أهل الإيمان إلى الامتثال والمبادرة، وعدم التعلل بالواهى من العلل، للتحلل من أوامر الشرع أو نواهيه.

ويصح - في نظرى القاصر - أن تكون تلك قاعدة يفسر بها الأمر بالتقوى، قبل الأمر بالشىء أو النهى عن شىء. وبالتنقيب في كلام أهل العلم عن بصيصٍ يؤيد ما أقول، وجدت في كلام العلامة الطاهر بن عاشور - عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] - شيئاً من ذلك، حيث يقول: «ويجوز أن يكون (اتقوا الله) المذكور أولاً مراداً به التقوى بمعنى الخوف من الله، وهى الباعثة على العمل، ولذلك أردف بقوله: ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾»(١).

أما ما ورد من الأمر أو النهى، ثم يعقبه الأمر بالتقوى، كقوله تعالى: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٢).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [المائدة: ٥٧].

الظاهر من كلام المفسرين أن الأمر بالتقوى بعد الأمر بشىء أو النهى عن شىء، إنما هو الأمر بالتقوى مطلقاً، وهى التي تحمل المؤمن على تمام الامتثال لله تعالى، ولرسوله ﷺ في كل شىء، ثم الامتثال بوجه خاص بما ورد في السياق، تنبيهاً على أهميته في حينه. ويكون المعنى: اتقوا الله أن تقصروا في أوامره، أو أن ترتكبوا نواهيه، ومن جملتها ذلك الذي أمرناكم به أو نهيناكم عنه، وكذلك احذروا أن تتعدوا حدود الله فيه، أو أن تفرطوا في تحصيله.

يقول الإمام الطبرى في مثل ذلك، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ «يعنى - جل ثناؤه: واتقوا الله أيها الناس فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فاحذروه في ذلك أن تقدموا على خلافه». ثم يشير إلى ما أمر بهن السياق، فيقول - رحمه الله: «وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبائح...»، إلى أن يقول: «ثم خوفهم إن هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك وغيره، فقال: اعلموا أن الله سريع حسابه لمن حاسبه على نعمته منكم».[1]

نأتى الآن إلى تفصيل تلك المواضع:

## أولاً: المواضع التي عطفت فيها الأوامر على التقوى:

أول هذه المواضع قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. وهو معطوف على أمر من أوامر الشرع وهو قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ، كما هو واضح في سياق الكلام على أحكام الحج وإتمام مناسكه، ليفيد الوصاية بتقوى الله تعالى، بعد بيان تلك الأحكام التي لا تخلو من مشقة

(١) محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد ٤، (٦/ ٦٤).

للتحذير من التهاون فيها، فالأمر بالتقوى عام، والحج هو أجدر أفراد هذا العموم، لأن الكلام فيه.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فقد تصدر بقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾، اهتماماً بالخبر، وأن العلم به يقيني لا احتمال فيه، إذ لا حاجة فيه للنظر وإعمال الفكر. ولو اقتصر على قوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ لحصل العلم المطلوب، لكن لما أريد تأكيد الخبر افتتح بالأمر بالعلم. وفيه كذلك تعريض بغفلة المخاطب عن أمر مهم[1]، فجمعت هذه المعانى لتبين أهمية التقوى، وأهميتها في ذلك السياق بالذات، فإن كان في بعض أحكام التقوى كأحجام الحج شدة على النفس رجاء سعادتها، فإنه لا توازى شدة العقاب حال التفريط فيها والتهاون في أدائها، فكان هذا الحض متناسباً تماماً مع بقية السياق.

يقول العلامة الألوسى في «روح المعانى»:

«﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، كما يستفاد من ترك المفعول، ويدخل فيه الحج دخولاً أولياً، وبه يتم الانتظام. ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ لمن لم يتقه، أى استحضروا ذلك لتمتنعوا عن العصيان، وإظهار الاسم الجليل في مواضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة».[2]

فكان هذا الترتيب للأمر بالتقوى في هذا السياق بهذه المعانى، مما يحذر المرء أشد التحذير، ويخوفه أشد التخويف، من عدم التزام التقوى وأحكامها.

---

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢١١، ٢٣٠)، (٩/ ٣١٤). وقد فصلناها في قوله: (واعلموا أن الله مع المتقين).

(٢) العلامة الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٢٧). وقد سبقه بحروفه العلامة أبو السعود في «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٣). وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، مطبعة العاصمة القاهرة، ١٩٦٥م، (١/ ٢٣٠).

والموضع التالى هو قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وهذا موضع في الحث كذلك على التقوى والحض عليها، وهو في خاتمة آيات الحج من سورة البقرة، وهو معطوف على الأمر بذكره - سبحانه - في قوله: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ في نفس الآية، فهو من باب الأمر بالتقوى بعد الأمر بشيء من أوامر الشرع بما مر ذكره في بداية المطلب .

والقول في حذف مفعول ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ والقول في ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ سبق، والجديد الذي يحمل المؤمن على التقوى وهو قوله: ﴿ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ . وهذه الوصية بالتقوى وصية جامعة للراجعين من الحج أن يتقوا الله تعالى في سائر أحوالهم وأماكنهم، وألا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج، كما كانت تفعله الجاهلية، فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون، وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان أيضاً. وإن أهم شيء يدل على الثبات على تلك التقوى المأمور بها هو دوام ذكره، الذي يتحصن به المرء من الشيطان، كما أنه المقصود من تلك العبادات.

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تحريض على التقوى وتحذير من خلافها.[١] يقول الإمام فخر الدين الرازى، في «التفسير الكبير»: «وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فهو تأكيد بالتقوى، وبعث على التشديد فيه، لأنه من تصور أنه لابد من حشر ومحاسبة ومساءلة، وأن بعد الموت لا دار إلا الجنة أو النار، صار ذلك من أقوى الدواعى له إلى التقوى».[٢]

---

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٦٤).

(٢) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢٦). وانظر الألوسى «روح المعانى»، (ص ١٤٢). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٧).

وأما تقديم ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ فللاعتناء بمن يكون الحشر إليه[١] - سبحانه وتعالى. ويواصل الإمام الفخر كلامه، فيقول: «والمراد بقوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ أنه حيث لا مالك سواه ولا ملجأ إلا إليه، ولا يستطيع أحد دفعاً عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار: ١٩]».[٢]

وأما مناسبة ﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ للسياق دون غيرها، فقد ذكر ذلك العلامة الطاهر بن عاشور، في «التحرير والتنوير»، ونلخص ما يفيدنا، فيقول: واختير لفظ ﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ دون: تصيرون أو ترجعون؛ لأن الحشر – الذي هو الجمع بعد التفرق - يدل على المصير والرجوع، مع دلالة الاجتماع - مجتمعين كلهم - كما كانوا مجتمعين حين استحضار حالهم في هذا الخطاب، وهو اجتماع الحج، فذكر ذلك بالحشر العظيم».[٣]

ومعنى ذلك أن حشركم إلى الله تعالى يوم القيامة يذكركم به هذا الحشر الكبير في الحج في عرفات، ومزدلفة ومنى، وفى الطواف والسعى، إذ كل ذلك تنبيه مصغر ليوم الحشر الأكبر. والتقوى خير زاد يستعد به المرء لنجاته في هذا اليوم، فكان لفظ ﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ أنسب الألفاظ للسياق، مع الحض الشديد على تقوى الله.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وهو موضع كذلك من عطف الأمر بالتقوى على أمر من أوامر الشرع وهو الأمر بتقديم الأعمال الصالحة، وهذه الجمل الكريمة في سياق أدب من آداب الإسلام، وهو

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٤٢).
(٢) الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢٦).
(٣) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٦٤).

أدب إتيان النساء، وما ينبغى على المسلم أن يكون فيه من الفضائل، وهذا من إحاطة الإسلام بكافة تصاريف المرء وأعماله، لتكون في ظاهرها وباطنها، وسرها وعلانيتها على وفق ما يحب الله تعالى ويرضى.

وسياق الآية الكريمة: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أى: أعدوا لأنفسكم، أى: لنفعها ما يدخر لكم من الثواب بالأعمال الصالحة في هذه الحياة الدنيا، لتجدوا غبطة ذلك:﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ عطف على الأمر بتقدمة الأعمال الصالحة، وهو تحريض يناسب السياق السابق في قضاء الشهوات، وخوف التفريط في القربات؛ تحريض على امتثال الشرع بتجنب المخالفة، فيدخل تحته التخلى عن السيئات، والتحلى بالواجبات والقربات، فمضمونها أعم من جملة ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾».[1]

ولقائل أن يقول: ما علاقة ذلك بآداب إتيان النساء؟

العلاقة أولاً: بما أشرنا إليه آنفاً من أن كل حياة المسلم يجب أن تخضع لله تعالى.

وثانياً: أن ذلك اهتمام بالحرص على الأعمال الصالحة، لئلا ينساها المرء حال انشغاله بلذاته وشهواته، أو ألا تكون شهواته ولذائذه هى الطاغية على وقته وجهده، والمسيطرة على فكره وعقله، فإن له معاداً لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، إلا تقوى الله تعالى.[2]

---

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٤).

وقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ عطف على قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، وهو أسلوب جديد كذلك غير ما سبق من أساليب الحض على تقوى الله تعالى، وهو يحمل التحذير والترغيب في آن. يقول الطاهر بن عاشور، في «التحرير والتنوير»: «وقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ يجمع التحذير والترغيب، أي فلاقوه بما يرضى به عنكم، كقوله: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ ، وهو عطف على قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾».[١]

هذا أسلوب قوى في حمل المؤمن على تقوى الله تعالى، عندما يوقن بملاقاة الله - جل وعلا، وأنه لا يمنعه منه حينئذ مانع، ولا يدفع عنه دافع.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾، وكونه أمراً بعد الأمر بالتقوى يحمل شدة التحذير، ومناسبة ذلك للسياق فلم أر من تكلم عن مناسبته، كما في الآية السابقة في قوله تعالى: (تحشرون).

وأقول - والعلم عند الله تعالى: إن ملاقاة الله تعالى تزيد على الحشر، فهى مواجهة الله تعالى لعباده بما عملوا، فإذا تيقن المرء أنه محشور وموقوف ومعروض على الله تعالى، ثم يواجه بما قدمت يداه، فلا شك أن ذلك يزيد من خوفه من ربه، وكذلك من الاستحياء منه، وإن عفا عنه - سبحانه - وهو الأهم في ملاقاة الله، وكان تصريح العلماء بشىء من ذلك. يقول الفضيل بن عياض[2]: «وسوأتاه منك وإن عفوت».[٣] وهذا الكلام منبنٍ على حديث

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٥). قال ابن عطية: «هو خبر يقتضى مبالغة في التحذير»، «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٠٠).

(٢) هو أبو على الفضيل بن عياض أحد أئمة العباد الزهاد وهو أحد العلماء والأولياء انتقل إلى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام وتوفى رحمه الله عام ٨٧ هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ١٩٨).

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلى، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ط. دار ابن

الرسول ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبين الله ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم... الحديث».[1] وهذا الأمر مما يستحى المرء منه، وفيه ما حرم الله تعالى ونهى عنه، فكان مناسباً أن يستحى المرء أن يأتى الله تعالى بما يستحى منه، فنبهه المولى - جل وعلا - بلقائه على ذلك، وحذره من الفضيحة بين يديه بمثل تلك الأمور، وغيرها، والله أعلم.

وهكذا نرى كيف جاء هذا الأسلوب حاضاً على التقوى حاثاً عليها، لينضاف إلى ما سبق وما سيلى من أساليب .

وقد أشار العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره للآية في «التحرير والتنوير»، إلى ان الجمل الثلاث رتبت على عكس حصول مضمونها في الخارج. يقول - رحمه الله: «فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولاً، ثم يعقبه الأمر بالتقوى ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعاراً بأنها هى الاستعداد، ثم ذكروا بأنهم ملاقو الله، فجاء ذلك بمنـزلة التعليل».[2]

وجاء قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعقيباً للتحذير بالبشارة على عادة القرآن الكريم من قرن الوعد بالوعيد.

وأما الآية التالية، فقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وهذا أسلوب آخر نضيفه إلى ما أوردناه سابقاً من أساليب

---

=

كثير، دمشق، بيروت، (ص٤٩٦).

(١) رواه البخارى (٣/ ١٤١٧)، ومسلم (٤/ ١٠٩)، وهذا لفظ مسلم.

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٥). وقد ذكر الفخر الرازى في «التفسير الكبير»، (٣/ ٣٥٧)، تعليلاً آخر. قال في نهايته: «وما أحسن هذا الترتيب»، فانظره.

الحض على التقوى والالتزام بها.

جاء هذا الأمر بالتقوى بعد نهى وأمر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

وهذه الآيات قريبة من الآيات المسوقة آنفاً، ولكنها في الطلاق والخلع والعدة، وما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف، والتي أمر المؤمنين فيها أن يتقوا الله تعالى، في أنفسهم ونسائهم وبيوتهم، وأن تكون تقوى الله هى المحرك لهم فيما يأتون ويذرون من هذه الأحكام وغيرها، وألا يكون الهوى والشهوة والانتصار للنفس ومضايقة الآخرين هو الحامل لهم على ذلك، فيكونون كالمستهزئين بهذه الأحكام، اللاعبين بأوامر الله – جل وعلا. ثم ذكرهم بمنّته – سبحانه – بإنزال الكتاب والحكمة، إذ أخرجهم من وهدة الجاهلية وضلالها، فاتقوا الله ولا ترجعوا إلى هذه الضلالات، بعد هدايتكم بنعمة الإسلام.

فبينت الآيات – أولاً – أن تقوى الله تعالى لازمة للمؤمن إذاً في كل أحواله، وأنها المقصد من كل أحكام الشرع، فلا يفتأ القرآن الكريم يأمر بها ويوصى، سلوكاً واتباعاً، ويبشر بها عاقبة ونتيجة.

وثانياً: كان هذا الأسلوب من أساليب الحض على التقوى مناسباً لهذا السياق، فعندما حذرهم من الاستهزاء بآيات الله بأى نحو كان أمرهم بالتقوى وحثهم عليها بأسلوب التوكيد بأنه بكل شىء عليم، فلا يغيب عنه شىء من أمورهم .

فهذا تحذير من المخالفة يترتب عليه عقابهم، وإلا بماذا يفيد العلم بمن استهزئ بآيات الله. يقول العلامة ابن عاشور، في «التحرير والتنوير»: «وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شىء تنـزيلاً لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة،

منزلة من يجهل أن الله عليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء لأن هذا العليم قدير»[١].

وهكذا ينضاف علم الله بخلقه تحذيراً جديداً باعثاً على التقوى.

وأما الآية التالية، فهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وإذا كان علم الله تعالى - في الآية السابقة - بظواهر أعمالهم، وخوافي نياتهم هو الحاث لهم على تقوى الله تعالى، فإن بر الله بهم هو الباعث لهم في هذه الآية الكريمة على تقوى الله في سرهم وعلانيتهم، وكفى بإعلامهم بأن الله ناظر إليهم زاجراً ورادعاً. يقول العلامة أبو السعود، في تفسيره «إرشاد العقل السليم»: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك. وإظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتربية المهابة، وفيه من الوعيد ما لا يخفى»[٢].

ولتوضيح هذا التهديد الشديد الحامل على تقوى الله تعالى، نسوق شيئاً - مختصراً - مما ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي، في شرحه لحديث: «اتق الله حيثما كنت»، من كتابه «جامع العلوم والحكم». يقول - رحمه الله تعالى: وقال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى، وتظهرونها لي؟! إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟».

ويقول كذلك: «وهذا هو السبب الموجب لخشية الله في السر، فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر. وإلى هذا

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٤٢٥).

(2) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٧٠).

المعنى الإشارة في القرآن الكريم بقوله – عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]».

إلى أن يقول – رحمه الله: «وسئل الجنيد(1): بما يستعان على غض البصر، قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره. وكان الإمام أحمد ينشد:

**إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل: خلوتُ، ولكن قل: على رقيب**
**ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب».(٢)**

فإذا ما تيقن المرء أنه تحت بصر الله، لا يخفى منه شيء على الله، دعاه ذلك وحمله على التقوى والالتزام بأمور الشرع والاستحياء والخوف من مخافتها، وإجلال الله تعالى أن يراه حيث نهاه أو يفتقده حيث أمره.

والشاهد التالى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وهذا من بديع معنى الحث على التقوى والحض عليها، إذ نصر الله للمؤمنين من أعظم ما يشكرون عليه ربهم – سبحانه وتعالى، لأن النصر من عند الله – جل وعلا. فجعل الله تعالى تقواهم له – سبحانه – هو شكرهم الذي يتوجهون به إليه، ويقومون له به.

يقول الإمام ابن جرير الطبرى في «جامع البيان في تفسير القرآن»، عند تفسير هذه الآية الكريمة:

---

(١) شيخ مذهب التصوف، وهو سيد الطائفة، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، ت ٢٩٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء، (٢/ ١٣٧).

(2) انظر ابن رجب «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٩-٤٠٨).

«عن ابن اسحاق[1]: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾، يقول: وأنتم أقل عدداً وأضعف قوة، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: فاتقون فإنه شكر نعمتى».[٢]

أى أن تكون التقوى شكراً لله على نعمه، وأن يكون ذلك المعنى بهذه الصياغة من أساليب الحض على التقوى، فذلك مما يحتاج إلى توضيح.

أما الكلام على الشكر وتوضيح الكلام فيه، فقد ذكره كل من تكلم في هذه المقامات من مقامات الإيمان، كأبى حامد الغزالى في «الإحياء»، وابن القيم في «مدارج السالكين»، وابن أبى الدنيا في كتاب «الشكر»، وابن رجب الحنبلى في «جامع العلوم والحكم»، وكل من تكلم في التصوف، وغيرهم من شراح السنة، ومفسرى القرآن الكريم.

ونختصر من أقوالهم اختصاراً، ونركز على كلام الحافظ ابن رجب، لأنه الأنسب لما نحن فيه.

فنختصر مقدمة الشكر - أولاً - من كلام الإمام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين شرح منازل السائرين».[٣] يقول - رحمه الله تعالى - ما ملخصه: الشكر منـزلة من أعلى المنازل، وهى فوق «الرضا» وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: شكر وصبر. وقد أمر الله تعالى به، فقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤]، ونهى عن ضده، فقال تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، محدث، ومؤرخ، توفي سنة ١٥٠هـ. انظر المزي «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤٠٥).

(2) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٣، (٤/ ٤٩).

(3) ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، (٢/ ١٧٨:١٧٩): منـزلة الشكر.

تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وأثنى على أهله، فقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]، وجعل الشكر غاية خلقه وأمره، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]، ووعد أهله بأحسن جزائه، فقال: ﴿ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، فقال: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [لقمان: ٣١]، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فقد سمى نفسه - سبحانه: «شاكراً» و«شكوراً»، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبةً للشاكرين وفضلا.

يقول الإمام ابن رجب، في «جامع العلوم والحكم»، ما ملخصه: ولكن الشكر على درجتين: إحداهما: واجب، وهو أن يأتى بالواجبات، ويجتنب المحارم. وهذا لابد منه، ويكفى في شكر هذه النعم. والدرجة الثانية من الشكر: الشكر المستحب. وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين، وهى التي أرشد إليها النبى ﷺ.

كان الأسلوب القرآنى الكريم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ من أعظم أساليب الحث على التقوى والحض عليها، عندما يعلم المرء أنه بسلوكه مسالك التقوى المختلفة يصل إلى هذه الدرجة العلى من القرب والاصطفاء والأجر عند الله تعالى، وذلك في الدنيا والآخرة.

ونعود لسياق هذه الآية الكريمة، لنختم الكلام عليها، حيث يقول الحق تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ يقول العلامة أبو

السعود، أثناء تفسيره للآية، في تفسيره «إرشاد العقل السليم»: «وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم؛ أي إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل».[(١)]

والآية التالية قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والأمر بالتقوى هنا معطوف على أمر ونهي قبله، وهو أمر عام بالتقوى، يفيد التقوى في كل الأحوال والأمور، وخاصة ما تقدم ذكره - من باب الأولى - وهو التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، حتى ولو كان ذلك موجهاً ضد الكفرة المشركين الذين صدوكم عن المسجد الحرام، فلا يحملنكم بغضهم على الاعتداء بطريق التشفي.

ولما كان هذا حملاً للمؤمنين على هذه الدرجة العالية من الأخلاق الفاضلة، ولو مع الكفرة الذين آذوهم واعتدوا عليهم، كان لابد أن يأتي مع الأمر بالتقوى تحذير شديد يمنع من مخالفتها، ويحمل المؤمنين ويحثهم على التزامها، فجاء قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تعليلاً لهذا الأمر بالتقوى، أي: إن الله يعاقب من لا يتقيه لا محالة، لذا أكد هذا الخبر بإن والجملة الاسمية.

ونلاحظ كذلك أنه أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة في قلوب المؤمنين، إذ السياق بدلاً من قوله: إنه شديد العقاب. وأفاد إظهار اسم الجلالة كذلك تقوية استقلال الجملة، لتصير تذييلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾،

---

(1) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤٠٩).

ليحفظها المرء منعاً له من تقحم الحرام، أو التفريط في أوامر الله تعالى.[١] خاصةً وقد نزلت الآية الكريمة في المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، فما أن تمكن منهم المسلمون حتى وصلهم الأمر بالعدل، وترك التشفى والظلم، مع ما في ذلك من مخالفة النفس ودواعى الطبع من أن ينتصر المرء ممن ظلمه، وينـزل به شيئاً مما فعل به، ولصعوبة الموقف في هذه الأحوال على حد العدل جاء هذا التذييل الشديد، إن عاقبتم بشدة فجرتم ولم تعدلوا، فاحذروا شدة عقاب الله تعالى.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

وهو كذلك من مواضع عطف الأمر بالتقوى على أمر من أوامر الشرع، فقد نزلت الآية الكريمة في سياق سؤال الصحابة - رضى الله عنهم - عما يحل لهم من الصيد، فأحل الله لهم أن يأكلوا مما أمسكت عليهم الجوارح المعلمة إذا ذكروا اسم الله عليه. ثم عطف الأمر بالتقوى على ذلك: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، فأمرهم بتقواه أمراً عاماً، وبالأخص ما يتعلق بسياق الآية، حتى لا يخرجوا عما أباح لهم من الأكل، أو يتجاوزا ما حده لهم فيه، أو أن يتساهلوا في شيء من أمور الدين حال صيدهم، لأن ذلك مما تميل إليه النفس فتخرج به إلى هواها، وإلى مخالفة الرب - سبحانه، مع ما في الالتزام بتلك الأمور من مصالح لهم.

ثم جاء الحث على التقوى بأسلوب شديد التأثير، يحض على التقوى حضاً،

---

(1) وانظر لما سبق: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٦).

تنبيه: هذه الآية قبل نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾ [التوبة: ٢٨]، انظر: العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ٨٨).

ويحمل عليها حملاً، وهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، ليزيدنا معنى جديداً عما سبق من أساليب، فعلاوة على مجيء الأسلوب القرآني مؤكداً للخبر بإن والجملة الاسمية، ومظهراً للفظ الجلالة في موضع الإضمار، فقد جاء قوله سريع الحساب ليهددهم ويتوعدهم بالحساب وبسرعته، كأنه يقول: إن معاقبتكم عند المخالفة أسرع شيء يلحقكم، إذ هي في إثر المخالفة تواً، فانظروا نجاة أنفسكم من ذلك، وهو الإسراع بتقوى الله والتزام أوامره، والوقوف عند حدوده. يقول في «روح المعاني» العلامة محمود الألوسي: «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي: سريع إتيان حسابه، أو سريع إتمامه إذا شرع فيه، فقد جاء أنه - سبحانه - يحاسب الخلق كلهم في نصف يوم، والمراد على التقديرين أنه - جل شأنه - يؤاخذكم على جميع الأفعال حقيرها وجليلها، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، وتعليل الحكم..».[١]

ويضيف العلامة الألوسي: «ولعل ذكر هذا إثر بيان حكم الصيد لحث متعاطيه على التقوى، لما أنه مظنة التهاون والغفلة عن طاعة الله تعالى، فقد رأينا أكثر من يتعاطى ذلك يترك الصلاة ولا يبالي بالنجاسة، والمحتاجون للصيد - الحافظون لدينهم - أعز من الغراب الأبيض، وهم مثابون فيه».[٢]

وقد جمع الإمام ابن عطية في «المحرر الوجيز» تفسير الآية.[٣]

وأيا كان موعد الحساب، فهو تهديد شديد يسوق على التقوى لمن تدبره وخاف معانيه.

وهكذا تزيدنا الأوامر بالتقوى أساليب جديدة في الحض عليها كلما توغلنا

---

(1) العلامة محمود الألوسي «روح المعانى»، (٢/ ١٠).

(2) المصدر السابق، (٦/ ٩٥-٩٦).

(3) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٢/ ١٥٨).

مع تلك الآيات، التي يحسبها المرء بادى الرأى أمراً واحداً، لتعلمنا بقيمة تقوى الله تعالى، وأهميتها وجدارة المرء أن يبذل لها ليصير من أهلها.

والآية التالية هى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة: ٧].

جاء هذا القول الكريم معطوفاً على قوله - جل وعلا: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾.

أى جاء الأمر بالتقوى معطوفاً على أمرهم بتذكر نعم الله عليهم، وبأمرهم أن يذكروا الميثاق، وهو العهد بينهم وبين ربهم، حين قالوا سمعنا وأطعنا. ثم ذيل بالحض على التقوى بمعنى جديد، ولفظ جدى يضاف إلى ما سبق من أساليب الحث على التقوى وامتثالها، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

ولننظر في سياق الآية لتوضيح ذلك:

ذكَّرت الآية المؤمنين بنعمة الله عليهم، وهى نعم مضت ليست نعمة واحدة، وإنما المراد جنس النعمة، وأعلاها الإسلام، ثم العز والتمكين في الأرض، وذهاب أمور الجاهلية، وصلاح حال الأمة، إلى غير ذلك من النعم التي أجملتها هذه اللفظة المباركة الموحية. وإذ ذكرهم بالنعم فإنما يقصد بالتذكير شكر الله تعالى، والوفاء له بالعهد، والاستقامة على ذلك، لئلا يخرجوا إلى كفران تلك النعم فيحرموها. ثم ذكرهم بعهده الذي عاهدهم به من بيعتهم للنبى ﷺ على الإسلام، وعلى ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، وذكرهم ببيعة العقبة الأولى والثانية، وببيعة الرضوان، كل هذه العهود وغيرها التي قالوا فيها: سمعنا وأطعنا. وكذلك تحمل الآية معنى العهد الذي عاهدهم به، أى: وفاؤه لهم - سبحانه - إذا وفوا بما عاهدوا الله عليه،

فكان من استعمال العهد في حقيقته ومجازه.[١]

وعقب بعد ذلك بالأمر بالتقوى، لأن النعمة تستحق أن يشكر مسديها، وأن العهود يجب أن يوفى بها، وشكر الله تعالى والوفاء بعهده هما تقواه، وهو مناسب أشد المناسبة لهذا السياق الكريم.

وجاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ليبين هذه المناسبة في الآية، فيحمل على التقوى ويحث عليها، لأن هذا التذييل جاء تعليلاً للأمر بالتقوى، أي: واتقوا الله لأنه عليم بذات الصدور، فلا تخفى عليه منها خافية، فلا يطلع منكم على تقصير في شكر نعمه، أو إضمار لعدم الوفاء بعهده. فهو تحذير من إضمار شيء من المعاصي، ومن توهم أن الله لا يعلم مكنونات صدورهم ودواخلهم، فيحذروه أشد الحذر. وإذا كان الله مطلعاً على تلك الخفيات، فمن باب أولى أن يطلع على ما ظهر منهم.

وإذا كان الأمر بالتقوى أمراً عاماً، فيدخل فيه المتقدم دخولاً أولياً، أي: فليتقوا الله في كل أمورهم، وبخاصة ما كان من شكر نعمه والوفاء بعهده.[٢] وقد أشار الإمام ابن جرير لمثل ذلك.[٣]

---

(1) سمعنا بمعنى: علمنا، أي: علمنا وأطعنا، أو بمعنى: امتثلنا. وتكون «وأطعنا» توكيد لها، وقد جاء ذلك في معنى سمع قوله: بايعنا على السمع والطاعة.
وانظر لما سبق العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٤:١٣٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٣). والألوسى «روح المعانى»، مجلد٤، (٦/ ١٢١:١٢٢).

(2) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٤:١٣٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٣). والألوسى «روح المعانى»، مجلد٤، (٦/ ١٢١:١٢٢).

(3) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان، مجلد٤، (٦/ ٩٠:٩١).

وهكذا يأتى أمر القرآن الكريم بالتقوى في المواضع التي تحتاج إلى التقوى.

وأما الآية التالية فهى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وهذه الآية الكريمة مما عطف فيه التقوى على الأمر: ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ و﴿ فَٱنتَهُوا۟ ﴾. وهى وإن كانت نازلة على سبب خاص في غزوة بنى النضير، إلا إنها آية عامة، وفيها جماع صلاح المؤمنين، لذا أمرهم بتقوى الله تعالى الحاملة لهم على عدم تفريطهم فيما آتاهم أو الوقوع فيما نهاهم، لأنه ما أمرهم ﷺ بشىء إلا بشىء يقربهم إلى الله، وما نهاهم عن شىء إلا وفيه بعدهم عن الله – سبحانه وتعالى، فكانت مصلحتهم في الأولى والآخرة في قبول أمره والانتهاء عن نهيه، فطاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصيته: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، لأنه ﷺ كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤]. ومن ثم كانت عاقبة تلك الطاعة له ﷺ الهداية: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور: ٥٤]، والرحمة: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]، والفوز في الآخرة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

فلا غرو أن جاء النكير بالتشديد على مخالفته ﷺ فقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]. فكان متناسباً إذاً أن يأتى أسلوب الحض على هذه التقوى بقوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بتأكيد الخبر، وإظهار العقاب الشديد لمن يخالف أمره ونهيه ﷺ.

والآية أبلغ رد على من يريد الاحتكام إلى القرآن الكريم لا غير، إذ ذلك ليس من تقوى الله، لأنه في النهاية رد للقرآن والسنة جميعاً. وقد ذكر معظم المفسرين – عند تفسير تلك الآية – أحاديث لزوم اتباع النبى ﷺ وأن ذلك من

تقوى الله تعالى.[١]

وختمت الآية - كما أشرنا - بهذا الأسلوب من أساليب الحض على التقوى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾، ليبين مغبة مخالفة أمره ﷺ ، وليخوفهم ويحذرهم من ترك التقوى الحاملة لهم على ذلك. لذا يقول الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»: «وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة، فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله ﷺ ، وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هى امتثال الأمر واجتناب النهى، واتقوا عقاب الله لأن الله شديد العقاب، أى لمن خالف أمره واقتحم نهيه».[٢]

وأما الآية التالية، فهى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ ﴾ [الحشر: ١٨].

ونختم بهذه الآية الكريمة، وهى الوحيدة التي جاء فيها أمر معطوف على الأمر بالتقوى، ثم جاء الأمر بالتقوى مرة أخرى معطوفاً على هذا الأمر. ثم ختمت بهذا الأسلوب المناسب للسياق من كون الرب - جل وعلا - خبيراً بمن يتقى ربه ومن لا يتقيه، وسيجزى كلاً بما يستحق. وهذه الآية الكريمة هى وأمثالها الأصل والدليل لمبدأ محاسبة النفس قبل ملاقاة الحساب يوم القيامة.

كان الأمر بالتقوى إذاً الحاث للمخاطبين بالإيمان على تلك المحاسبة، وكان

---

(١) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٩/ ٣٤٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٨٧). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٣٦). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٨/ ٧١).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٨٧).

الأمر بالتقوى الثانى هو الحامل لهم على ملازمة ذلك والاستقامة عليه، خاصةً أن الله تعالى قد قرب إليهم يوم القيامة كأنه غد، ليسهل عليهم مدة المجاهدة اليسيرة في هذه الحياة الدنيا، مع ما يترتب على ذلك من النعيم الخالد المقيم.

والغد أقرب الأيام في حياة المرء، أى أن يوم القيامة أقرب الأيام، يعنى أن أقرب أيام المرء ليكون عند الله، فماذا قدم لهذا الغد؟! ومن ثم جاءت لفظة (غد) منكرة لتهويل ذلك الغد، وخطر شأنه بما لا يدركه أحد، أى غد لا يدرك كنهه، لغاية عظمته، وكنه ما ينتظر الناس فيه من أهوال وكرب.[(١)]

هذا وجه تنكير لفظة (غد)، فما وجه تنكير (نفس)؟ يجيب الزمخشرى على هذا السؤال، ومثله عدد من المفسرين، فيقول: «أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك».[(٢)]

أى أن النفوس الناظرة في أمر آخرتها، وما هى مقدمة عليه من أمر الله، قليلة، وإن كانت كل نفس مطالبة بذلك، لأن النكرة في هذا السياق من صيغ العموم.

يقول العلامة الألوسى، في «روح المعانى»، ما ملخصه - بعد أن نقل كلام الزمخشرى: «ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وفيه حث عظيم على النظر وتعيير بالترك، وبأن الغفلة قد عمت الكل، فلا أحد خلص منها، فهو كما في الحديث: «الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة»، لأن الأمر بالنظر وإن عم لكن المؤتمر

---

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٨٤). والألوسى «روح المعانى»، (٢٨/ ٨٦-٨٧).

(٢) الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٨٤). وممن تبع الكشاف بألفاظه: الفخر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد١٥ (ص٤٨٤). وصديق خان «فتح البيان»، ويقول: «وفى النفس - التنكير - للتقليل أو التعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب»، (٩/ ٣٦١). وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/ ١٤٨)، ونسبه للزمخشرى. والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٨/ ٨٧).

الناظر أقل من القليل».[١]

وقد تكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى، لإظهار لزومها أولاً، والثبات عليها آخراً، لخطر هذا الأمر وعظيم شأنه. وسواء تكرر ذلك توكيداً للأمر السابق، أو تأسيساً لأمر جديد بالتقوى، فهما يظهران أهمية الذي اكتنفه الأمر بالتقوى، وأهمية التقوى للقيام بهذا الأمر.

وجاء قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ تعليلاً للحث على التقوى في الموضعين، مع إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار، ليكون أوقع في نفوس المخاطبين، مع استقلال الجملة بدلالتها.[٢]

نختم بذلك أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها، بما اتسع المقام، وهو إشارة لما وراء ذلك مما يمكن أن يقف عليه الباحث في أمر التقوى، وهو تنويه بما كررنا القول به من قبل لقيمة التقوى، حتى تنوعت أساليب الأمر بها والحض عليها بما أتينا بشيء من تفصيله.

## ثانياً: النواهي المصاحبة للأمر بالتقوى:

كان فيما ذكرنا في فصل «أساليب الأمر بالتقوى» أن الأمر بالتقوى قد يأتي

---

(١) العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٨/ ٨٧). وانظر كذلك الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٠) وما بعدها.

والحديث أخرجه البخارى، ومسلم (٢٣٢)، الفضائل، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد في المسند. وهو في صحيح الجامع (٢٣٢٨)، (جـ٢)، ط. المكتب الإسلامى، تحقيق ناصر الدين الألبانى.

يقول الإمام النووى في شرح الحديث: «بل معنى الحديث: أن الزاهد في الدنيا الكامل في الزهد فيها، والرغبة في الآخرة قليل جداً، كقلة الراحلة في الإبل. هذا كلام الأزهرى، وهو أجود من كلام ابن قتيبة»، النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٤٢).

(٢) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٢).

معطوفاً على أمر من أوامر الشرع، أو معطوفاً على نهي، وأشرنا إلى أمثلة، ثم أفردنا الأوامر بالكلام. وجاء الآن دور الكلام على النواهي المعطوفة على الأمر بالتقوى، لأنها تبين كذلك مقصود الشارع عندما ينهى عن شيء، ثم يأمر بتقوى الله في الالتزام بهذا النهي، أو العكس. وتوضح أيضاً أن اجتناب النواهي من شرائط تقوى الله تعالى. وهاكم تلكم المواضع:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [المائدة: ٥٧].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

٣. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ [الحجرات: ١].

٥. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ [الحجرات: ١٢].

نبدأ بالموضع الأول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾.

وإذا كانت الأساليب السابقة في الحض على التقوى والتزامها يستخدم فيها

صفات الله تعالى وأسماؤه على إجلاله والخوف منه، فإن الأسلوب الجديد يخاطب المؤمنين من ذوات أنفسهم، بإيمانهم الذي يدعون، وبالعكس منه كذلك، كأنه يقول: إن المؤمنين لا يفعلون ذلك الذي يتنافى مع إيمانهم، أو مع كمال إيمانهم بالله.

والأمر بالتقوى هنا معطوف على نهى، على خلاف ما سبق من العطف على أمر أو أمر ونهى. فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية المستهزئين بدينهم من أهل الكتاب المشركين، ومن الكفار الذين لا كتاب لهم، ثم أمرهم بتقوى الله الباعثة لهم على ذلك، لأن التقوى هى الكفيلة بقطع تلك الولاية المحرمة بين المؤمنين وبين أولئك المجرمين.

ومصداق الآية واقع شاهد، فما والى المسلمون أعداء دينهم الصادقين لعباد الله عنه، المستهزئين به إلا من قلة تقواهم التي يخشى بها على إيمانهم ذاته. لذا كان الأسلوب متناسباً مع السياق أعظم التناسب مما لو قال مثلاً أن الله سميع عليم، لأن القضية قضية إيمان وكفر، خاصة وقد ذكرهم قبل ذلك بأن من يتخذ أولئك المشركين أولياء فهو منهم فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١]، أى ليس مؤمناً.

أما الموضع الثانى، فهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وإذا كان الإيمان في الآية السابقة معلقاً بالتقوى - سواء كان في أصله أو في كماله - فإنه ينتفى أصله أو كماله بانتفائه، مما يحث المرء على التقوى خوفاً من ذهاب إيمانه، فإنه في هذه الآية الكريمة قد أمرهم بالتقوى معللاً ذلك بإيمانهم بالله - جل وعلا، فإن ربهم الذي آمنوا به يستحق منهم التقوى - سبحانه، وكذلك إيمانهم بربهم ﷻ إنما يظهر ويتحقق بتقوى الله – سبحانه وتعالى، لذا كان

هذا الأسلوب جديداً في حث المؤمنين على تقوى الله، بإظهار تلك الرابطة بينهم وبين ربهم، والتأكيد عليها.

وهذا ما يؤكده العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٨]. فكل آية - كما نرى - فيها أمر بتقوى تلهمنا معنى جديداً يستحث قلوب المؤمنين وخطاهم إلى تقوى ربهم، خاصة ما يعرض من أوامر أو نواهٍ في سياق الأمر بالتقوى في نفس الآية.

وسياق هذه الآية والتي قبلها يبين تمام الاتساق بين حكم الآية والأمر بتقوى الله وعلته، فقد نهى - سبحانه - المؤمنين عن تحريم ما أحل، وعن الاعتداء، ثم أمرهم بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وعطف على ذلك الأمر بالتقوى لله الذي هم به مؤمنون.

فكأنه يقول: إن الله الذي أنتم به مؤمنون هو الذي يحرم ويحلل، وليس لأحد غيره ذلك، فاتقوا الله ولا تحرموا ما أحل لكم، واتقوا الله ولا تعتدوا إلى ما حرم عليكم، فإن الذي أنتم به مؤمنون قد نهاكم أن تحرموا طيباته وتنقطعوا عن الحياة وتترهبنوا، فاتقوه ولا تفعلوا ذلك. وكلوا من طيباته التي رزقكم، واتقوه كذلك أن يصرفكم ذلك عن عبادتكم وذكركم، واتقوه أن يشغلكم ذلك عن شكره، واتقوه أن يكون ذلك سبب غفلتكم عن آخرتكم ومعادكم، أو غفلتكم عن المنعم بذلك كله عليكم. فالذى أنتم به مؤمنون يريد أن يرى أثر إيمانكم في التزامكم حدوده، واتباعكم لهدى نبيكم ﷺ. فالله تعالى يريد أن تظهر عليكم حقائق دعواكم بأنكم به مؤمنون.

وهى مسألة من خصائص الإيمان، التحليل والتحريم وطاعة الله تعالى، فكان مناسباً أن يذكرهم بالذى هم به مؤمنون.

والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ

أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

هذه الآية الكريمة جاءت تنهى عن أكل الربا، وقد وردت بخطاب المؤمنين، لأن من شأن الإيمان أن يحمل صاحبه على الاستماع لأوامر الشرع، والاستجابة لها، فكأنها تستثير فيهم تلك العاطفة التي تبعث على الاهتمام بما يلقى عليهم من الشرع، والإسراع إلى تنفيذه. والنهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ليس معناه جواز أكله بغير مضاعفة، لأنه قد ورد النهى مطلقاً عن أكل الربا في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وإنما ربا الأضعاف المضاعفة هو المعلوم عندهم في الجاهلية، فنهاهم عنه.(١)

والآية تبين وتؤكد أن ترك الكبائر من شرائط التقوى، لذا قال في الأولى: (لا تأكلوا الربا... واتقوا الله...)، أى: اتقوا الله في كل أحوالكم وأعمالكم، وبخاصة أكل الربا، فإن أكله دليل على عدم تقوى الله، بل دليل على دخول أكله تحت لعن الله له، وطرده من رحمته. وفى الآية الثانية أمر المؤمنين بتقوى الله أولاً، ثم عطف عليه الأمر بترك الربا، لتكون تقوى الله والخوف منه هو الباعث على ترك الربا، ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، حضاً لهم على ذلك، وتبياناً لقيمة التقوى، فإنها إذا لم تحملهم على ذلك دل على عدم إيمانهم، فيثير فيهم بهذا الأسلوب المسارعة لإظهار الإيمان، وذلك بأن يبادروا إلى الإلتزام بما يبين تقواهم، وهو أن يذروا كل ربا بقى عليهم. وفى الآية الأولى قال: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، وهو حض آخر لهم على ترك الربا المضاعف الذي يظنون به فلاحهم بكثرة أموالهم، فدلهم على ما يطمئنهم على فلاحهم الحق بأنه ترك ذلك، فكان هذا الأسلوب تثبيتاً لقلوبهم وتقوية ليقينهم، وأن الحرام لا

(1) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٤).

فلاح معه، وأن التقوى سبب الفلاح في الأولى والآخرة.

أما الموضع الرابع، فهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ ﴾ [الحجرات: ١].

وهذه الآية الكريمة من آيات الآداب التي ساقها القرآن الكريم، تعليماً للمؤمنين وتأديباً لهم في معاملتهم لله ورسوله ﷺ. وقد تصدر الخطاب فيها بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه رادع للمحافظة عليه، ورادع عن الإخلال به.(١)

وقوله: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أى: لا تتقدموا بين يدى الله ورسوله، لا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجترئوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله ورسوله، ويأذنا فيه. وحاصله النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. وهى استعارة تمثيلية بتشبيه حال من يفعل فعلاً دون إذن من الله ورسوله بحال المتقدم على من يلزمه متابعته تصويراً للهجته وبشاعته بصور المحسوس، كتقدم الخادم بين يدى سيده بدون مصلحة. وهذا كله يؤكد أن التقوى ألا يفعل ذلك الفعل كله.(٢)

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»:

«وعطف (واتقوا الله) تكملة للنهى عن التقدم بين يدى رسوله ليدل على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول ﷺ من تقوى الله وحده، أى ضده ليس من التقوى».(٣)

---

(1) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ١٩٩).

(2) المصدر السابق، (١٤/ ٢٠٠).

(3) العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢١٩).

وكأن العلامة ابن عاشور لما قال: التقدم بين يدى الرسول، ولم يقل بين يدى الله ورسوله، كأنه نظر إلى تفسير آخر في الآية، وهو أن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أى: لا تقدموا بين يدى الرسول ﷺ، لأنه تقدم بين يدى الله تعالى، إذ النبى ﷺ هو المبلغ والواسطة عن الله تعالى فكان التقدم بين يديه تقدماً بين يدى الله تعالى. وإنما ذكر الله تعالى في الآية لتعظيمه ﷺ، والإعلام بجلالة محله عند ربه، ومزيد اختصاصه به.(١)

وللآية الكريمة عدة أسباب للنـزول، ذكرها المفسرون، تبين في جملة ما بينت كيفية تأدب الصحابة بهذه الآداب والتزامهم بها، منهم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما. مما يدل على ما ينبغى لمن دونهم من تقوى الله تعالى والتأدب بهذا الأدب.(٢) وختمت الآية بما يناسب سياقها من أن الله سميع عليم، وهو علة النهى عن التقدم بين الرسول ﷺ، وعلة الأمر بالتقوى لسمعه وعلمه الموجب لمراقبته وخوفه المؤذن بعذاب من يخالف ذلك. وقد أظهر الاسم الجليل في كل الإضمار بدلاً من أنه سميع عليم، لتربية المهابة والإجلال في نفوس المكلفين.

وعلى نفس النهج جاءت الآية الأخيرة، وهى تكمل لنا تلك الصورة السابقة من الآداب، وهى قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ٨].

أعيد النداء مرة أخرى، ومعناه كما ذكرنا في الآية السابقة، ولكن تكراره هنا لاختلاف الغرض والاهتمام به، وذلك أن المنهيات المذكورة من جنس

---

(1) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ٢٠٠).

(2) انظر السابقين، وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٠٥- ٢٠٦).

المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها ليدفعها، ومن ثم لم يكن الدافع لها إلا تقوى الله تعالى. وإذا كان الأدب في الآية السابقة مع الله ورسوله ﷺ، فإنه هنا مع المؤمنين الغائبين عن المرء بوجه خاص، مما يزيد من أهمية التقوى الباعثة على التنـزه عن مثل هذه الأخلاق، إذ ليس ثم إلا التقوى.

ونشير سريعاً إلى هذه الاخلاق المضادة للتقوى لزوم تفسير الآية. أول هذه الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، والتي تنشأ عنها الغيرة والمكائد والاغتيالات والطعن في الأنساب والمبادأة بالقتال، وما نجمت العقائد الباطلة إلا من الظنون الكاذبة، قال تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».[١]

ولما جاء الأمر باجتناب كثير من الظن، وهو المتعلق بالناس، دل على أن الظنون السيئة غير قليلة، فوجب التمحيص والفحص، لعدم اتهام الناس وحفظ حرماتهم وأخذهم بالظنة، فأعلم السامع بهذا الاستئناف البياني: ﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾، وهو كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون ليعرضوا ما تقضى إليه على أحكام الشريعة، أو سؤال أهل العلم ليدفعوا المحرم منها، وهو دليل على أنه ليس كل الظن محرماً، ولم نؤمر باجتنابه، وأما اجتناب الظن فبتعاطى وسائل الاجتناب، فإن الظن يحصل في خاطر الإنسان اضطراراً، فلا يعقل التكليف باجتنابه، وإنما يراد بالأمر التثبت فيه وتمحيصه والتشكك في

(1) رواه البخارى (٦٠٦٤)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١٠/ ٤٨١). ورواه مسلم (٢٥٦٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٦١).

صحته إلى أن يرجح أحد طرفيه.(١)

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ فهو كذلك من تلك المنهيات التي تضاد التقوى، ويجب على المسلم اجتنابها، وهى من آثار الظن، لأن نفس الظان تدعوه إلى تحقيق ما ظنه سراً فيسلك طريق التجسس، ووجه النهى عنه أنه ضربٌ من الكيد والتطلع على العورات. وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسؤه فتنشأ عنه العداوة والحقد، وذلك ثلم للأخوة الإسلامية. وإذا ترتب على التجسس مفسدة عامة صار كبيرة من الكبائر، كالتجسس على المسلمين لمن يبتغى الضر لهم. وليس من المنهى عنه ما يجر نفعاً للمسلمين كالتجسس على الأعداء.

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾، والاغتياب أن يذكر الغائب بما يكره، والاسم الغيبة بكسر الغين، وإنما قال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ دون أن يقال: اجتنبوا الغيبة لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾، وقد مثلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت، والتمثيل مقصود منه استقطاع الممثَّل وتشوبهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين؛ لأن الغيبة متفشية في الناس.

والاستفهام في (أيحب أحدكم..) للتقرير لتحقق أن كل أحد يقر بأنه لا يحب ذلك، بل يشمئز منه ويقذره، فجاءت فاء الفصيحة لتفيد الإلزام بما بعدها، أى إذا أقررتم بكراهة الممثل به فاكرهوا الممثل كذلك، وهو الغيبة وفى هذا الكلام مبالغات أشار إليها المفسرون تفيد تبشيع هذه الصورة المنكرة، حتى عدت عند جمهور أهل العلم من الكبائر، وإن استثنوا مصلحة الشهادة والرواية

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥١-٢٥٣).

أو المشورة في مخالطة أو مصاهرة.[١]

لا شك بعد ذلك كله أن يكون من شرائط التقوى ترك الكبائر فجاء للأمر بالتقوى معطوفاً على الجمل السابقة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ ليكون كالتذييل لها، إذ التقوى هى جماع الاجتناب والامتثال، فمن كان سالماً من التلبس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشىء منها في المستقبل، ومن كان متلبساً بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها.

وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل للتذييل، لأن التوبة تكون بعد التلبس بالإثم فقيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ ﴾، وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقى، فالرحيم شامل للجميع.[٢]

فكان هذا الأسلوب فاتحاً لباب الرجاء الباعث للناس على تقوى الله – جل وعلا – متناسباً مع السياق.

اتضحت بهذه الصور التي أوردناها كيف أن الأمر بالتقوى معطوفاً على تلك النواهى دليل على أنها مخالفة للتقوى يشترط نفيها والتنـزه عنها حتى يدخل المؤمن في زمرة المتقين.

ونختم بهذا الموضع، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]:

وهو كذلك من عطف النهى على الأمر بالتقوى، أى اتقوا الله حق تقاته،

---

(1) انظر الإمام محمد بن أبى بكر بن أيوب بن قيم الجوزية «التفسير القيم»، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية بيروت، ص٤٤١)، والطاهر بين عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥٥-٢٥٦)، والألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ٢٣٨-٢٤٢).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥٧).

ونهاهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون. والآية كما ذكر المفسرون معناها أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا التفسير منقول صحيحاً عن ابن مسعود ﷺ.[1] وأما النهى عن أن يموتوا إلا وهم مسلمون فإن معناه المداومة على هذه التقوى إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فيوشك بمداومتهم على التقوى أن يثبتهم الله عليها حال حياتهم فيأتيهم الموت وهم كذلك.

والآية تشير إلى لزوم المرء التقوى في كل أحواله، لأنه لا يعلم متى يموت. ونلاحظ أنها أمرت بأن يتقوا الله حق تقاته، ليست أى تقوى، لأن هذا البذل والاهتمام لأمر الآخرة سبب من أسباب التوفية على الإيمان.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الآية منسوخة[2] بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن: ١٦]، والصحيح الذي عليه المحققون أن ليس ثم نسخ في الآية، إذ تقوى الله حق تقاته لاشك منوطة باستطاعة العبد[3]، وكأن المطلوب أن يبذل المرء جهده وما يستطيع حتى لا يموت إلا

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٨٧).

(٢) انظر السيوطى «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (٦/ ٢٢٨). وانظر الخازن «لباب النقول في معانى التنـزيل»، ط. الحلبى، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٨٥م، (٦/ ١٠٦).

(٣) انظر الطبرسى «مجمع البيان في تفسير القرآن»، مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م. وكذلك هو قول الثعالبى «الجواهر الحسان»، ط. مؤسسة الأعلمى، بيروت، (١/ ٢٩٤). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٥/ ٣٠). والقاسمى «محاسن التأويل»، ط. دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م، (١٥/ ٥٨٢٦). والشوكانى «فتح القدير»، دار الحديث، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (١/ ٥٤٧).

مسلماً، وهو مقصود يجب أن يبذل المرء له حتى يتعرض لفضل الله بتثبيته عليه إلى المات. وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن النهى عن الموت على غير الإسلام مجاز يستلزم عدم مفارقة الإسلام طالما كان حياً، لأنه لا يدرى متى ينتقل إلى الله تعالى، فبينت الآية أن التقوى لا تجوز مفارقتها على حال، ولا التقصير فيها في أى زمان.

obeikandi.com